

فزان بين يدي الفرنسيين والطلليان

للأستاذ أحمد رمزي بك

(تسعة)

امتهول فرنسا :

في سنة ١٩٤٠ وقيل عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا دعت الحكومة الفرنسية الجنرال والقائد العظيم فيجان لثولي القيادة العامة وسد ثغرة سيدان ، لقد تمطعت الجهة وأندكت حصون خط ماجينو في الشمال والزحف الألماني لا يقف وراديو برلين يصيح « لو بثت نابليون من قبره ، لما كان في وسعه أن يثير القدر المحتوم » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية .

وكنفت جباراً للجنرال كايو وقد زالت الكلفة بيننا وفي عصر أحد الأيام دعاني لمتزله وقال لي إنه يتأذى البلاد الليلة إلى مصر قالسودان فأفريقيا الغربية فراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة فيجان التي طلب إليه أن يضم إلى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي ، إذن يجب أن يكون بمجبهة القتال قبل أربعة أيام قلت « إنكم تنتظرون قرارات حاسمة لايتأق هذا الزحف المستمر » قال : « إن إنقاذ فرنسا يحتاج إلى معجزة » . إن ذكر أربعة أيام للوصول إلى فرنسا هي التي لفتت نظري ، فهذا القائد يفساد ريعوت إلى القاهرة ومنها إلى الخرطوم ومنها إلى واداي ومنها إلى بحيرة تشاد ثم تمبوكتو ومنها إلى وسط الصحراء ثم الدار البيضاء ليصل في أربعة أيام إلى فرنسا « التي كان بوسعه أن يصلها في ساعات » .

هذا الموقف الحام في استراتيجية البحر المتوسط سببه دخول إيطاليا الحرب تلك الدولة التي تمك من المراكز ما يمكنها من أن تشل حركة الحلفاء جميعاً وتجعل من البحر قسامين وتدخل في صميم القارة الأفريقية بقطاع يهدد أملاك إمبراطوريتين .

ومن هذا تنهم أول مبرر يدفع الفرنسيين لتسك باقليم فزان على أساس أنه على الطريق الجوي بين مدغشقر وفرنسا . وحيث عقدت الهدنة ظهرت حركة الفرنسيين الأحرار التي

ترأسها الجنرال دييجول أخذ يسي إلى جمع شمل الإمبراطورية تحت لوائه فكان أول من انضم إليه الجنرال كاترو بالهند الصينية ولكن موقف اليابان حال دون استمراره ففسادرها وانجبت الأنظار إلى منطقة قريبة فكان السكتو الفرنسي أول الغايطات التي انضمت إلى الحركة والغريب أن الظروف تركت هناك حاكاً وطنياً من الشعوب اللونة وهو القدي توني قبل نهاية الحرب بالقاهرة وكان أمل فرنسا يستهدف أن تحتفظ بمكان لها على مائدة الحلفاء ، ولذلك تثير اسم فرنسا الحرة إلى فرنسا القاتلة وحاول الجنرال دييجول مهادراً أن يسمح له بالجلوس مع روزفلت وستالين ونشرشل ، وكان الأولان يترضان على وجود فرنسا لأنها سلمت ولم تحارب ولذلك انجبت إرادة فرنسا الحرة إلى تحمل أعباء قتال في أي جهة وكان أن سمنا بفرق من المشطوعين وجنود الستمرات تحارب في صف البريطانيين وبين أيدينا في سوريا ولبنان ذكريات ضباط البر والبحر والجو الذي كانوا يخترقون حدود فلسطين للانضمام إلى قوات فرنسا الحاربة ، وكان أن ظهرت قوات في ميدان سوريا ولبنان ، ثم في الحدود المصرية في بير حكيم حين استقبلت قوة فرنسية أمام قوات تفوقها عدداً عن جنود المحور . إلا أن العملية الحربية المنفضة والمستتلة تماماً عن بقية جيوش الحلفاء هي العملية التي قوتها فرنسا القاتلة بزحفها من بحيرة تشاد عبر الصحراء الكبرى وانتهت إلى فزان . وهي من أعظم حركات حروب البادية .

ولقد كان رأى فرنسا في الحكم الإيطالي يختلف تماماً من رأيها اليوم وإليك الدليل من نشرة رسمية لحكومة الفرنسيين الأحرار وسأقرأها بالفرنسية :

Jamais aucune puissance coloniale n'a traité avec aussi peu de pitié, d'humanité ou même simplement de conscience les populations sur lesquelles des traités leur donnaient des droits. On n'a jamais spolié, on n'a jamais massacré, on n'a jamais exterminé un peuple, comme les alliés l'ont fait en Italie. Les rapports les plus accablants, les plus photographiques les plus significatives s'accumulent sur les barbares de la S. D. H., sans que les Etats Soviétiques prêtent le moindre ombrage de ces barbares. On devine avec quelle ferveur les Pezzanais attendaient la libération.

Nous avons trouvé auprès d'eux non seulement le secours que nous étions en droit d'espérer, mais un appui actif.

أن مطارات الصحراء كانت تسمح باتصال الإيطاليين بإثيوبيا مع دونتى المهور .

هذه هي العمليات التي أدت إلى دخول الفرنسيين وهي بطبيعتها مكملة لحركات الحلفاء في شمال أفريقيا ، ولقد كانت الأهداف تدمير مستعمرة وبعيدة عن التحقيق لو كانت مستقلة تماماً ولكنها كعملية للحروب الاستعمارية الصحراوية تستدعي أن تنف قليلا لتتحدث من الصحراء .

حروب الصحراء :

للصحراء روعة تحدث عنها الكثيرون من أهل أوروبا من رجال الجندية وغيرها . حقاقتها تختل في نظرم حدود بحر متسع من الرمال يدهو الواقف على شاطئه أن يرك الأخطار فيكتشف فيها ما وراء الأفق أو هي قطعة من عمل الطبيعة تتحدى الإنسان — أقصد الإنسان الواسع — وتدموه أن يقدم عليها ويواجهها وينازلها ليكتشف ما تخفيه في أعماقها .

ولذلك كثرت عدد الرواد وانتهى الأمر إلى أن أصبح للصحراء حروب ومشارك وأنظمة خلق عليها للمستعمرون أهمية خاصة . وكان من أهم مظاهرها وفوائدها أنها تخلق تلك الفتحة الممتازة من الرجال الذين تخرجهم مدارس الحروب الأفريقية والآسيوية بتجاربها القاسية . وبعد أفراد هذه الفتحة ذكراً لا يقدر بشئ للبلاد التي تحمل المستعمرات الشاسعة البعيدة من العمران والتي يحتاج استتباب الأمن فيها إلى القيام بمحملات دائمة ومستمرة ضد أهال وسكان للبلاد الوطنيين الذين يحدثون أنفسهم بالدفاع من أوطانهم .

فلكي يكون لدينا مثل هذه الفتحة الممتازة لغزو المدوان وشبهه ، يجب أن ندفع بعدد من رجالنا فأعما إلى الأخطار فإن لم تكن لدينا حروب وجب أن نشجع هذا الفريق أن يتطوع خارج البلاد وأن يشترك في أية حروب قائمة بصرف النظر من ميلنا لهذا الفريق أو ذاك من المتحاربين . إننا نكون غرضنا الأساسي الحصول على تجارب كل فريق وآسالييه في القتال متجهين إلى تربية روح المناصرة في النفوس .

من هذه المدرسة تخرج قواد المستعمرين الذين قادوا الحروب في أوروبا وكانوا قوة للبلاد التي ينتمون إليها ذلك لأن وجودهم في جو يدمو إلى تحمل للشاهب ومواجهة الأخطار وأخذ المسئوليات

كانت مقدمة هذه الحركة . عملية من أخطر العمليات التي صارت في تاريخ حروب البادية ولكنها أشبه بحركة كشفية منها بعملية حربية . فقد قام من الجانب الفرنسي ضابط اسمه جان كولوتا دورناغو من ضباط قوات البادية الفرنسيين واشترك معه ضابطان بريطانيان اجتماعاً في القطاع الجنوبي حيث تلتقي الحدود بين المستعمرات الإيطالية والفرنسية وحدود السودان وكان هذا في ٤ يناير سنة ١٩٤١ وفي ١١ يناير تمكنت هذه القوة المخاطرة من تدمير مطار مرزوق والسودة بعد أن ظل الضابط الفرنسي كولوتا دورناغو تحت وإبل رصاص الطليان . وتعرضت بعد هذه الحلة واحة كفرة والجزء الجنوبي من فزان لعدة هجمات سنة ١٩٤٢ وفي أوائل سنة ١٩٤٣ زحفت قوة الجفرال lecciere الفرنسي من الجنوب وأهم أغراضها احتلال فزان وتحريرها وكان مراكز التجمع Fort amy ثم Faya وأت المؤن والذخائر وبالسيارات من برازا فيل ، وكانت القوة الزاحفة عددها ٧٣٨ ضابطاً ورجلاً وقد اختير موعد الزحف بين شهرى نوفمبر وفبراير وفي ٢٥ ديسمبر أذيع أول بلاغ من السلية يتضمن دخول القوة في يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ أراضي فزان ، وفي ٣٠ ديسمبر احتلت أم الأرناب بعد مناوشات مع قوة إيطالية وسلم عشرة من الضباط وأكثر من مائتي حندي وطني وفي الوقت نفسه سلحت البطرون ثم سبها وفي ١٢ يناير سلحت مرزوق .

كان الاستعداد لهذه العملية كاملاً من جميع الوجوه وجاءت في الوقت المناسب الذي كان الحلفاء يدفعون بجيوش المهور إلى الحدود التونسية ، ولذلك تمكنت الحلة الفرنسية بعد احتلال فزان أن دخلت طرابلس في ٢٥ يناير ، واحتلت في ٢٩ يناير سنة ١٩٤٣ غد أس .

وقد اشتركت القوات الهوائية الفرنسية وأبليت في المارك بلاه حسناً ، ولكن منظمة الحلة فهي في تنظيمها وسيرها وأنها حركة مفاجئة رغم أن الحرب التي واجهت الحلة هي حرب مع الطبيعة أكثر من أنها حرب مع الطليان ، وقد دلت عمليات الصحراء من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ على أن قيادة الحلفاء كانت تحسب حساباً للمطارات الإيطالية في الكفرة وفي مرزوق ، وقد ذكر الفرنسيون أنهم وجدوا في مطار الكفرة البريد السري الذي كان يرسله حاكم جيبوتي التابع للحكومة فيشي مما يدل على

أولاً : اهتمام الدول الأوروبية بالصحراء الأفريقية مما يتطلب منا ضرورة التجهيل بإنشاء معهد الصحراء للدراسة مستقبل الصحارى في بلادنا وفي القارة الأفريقية وفي آسيا خصوصاً جزيرة العرب .

ثانياً : اهتمام الدول الاستعمارية بطرق المواصلات عبر الصحراء وهي مواصلات برية وهوائية .

— فالأولى ستعود بنا إلى طرق القوافل القديمة فليتنا أن نستمد من الآن على دراسة هذه الطرق ودراسها على الخرائط ثم العمل على إعادتها واكتشاف مواقع المياه فيها ، أما الطرق الهوائية فأول واجب يحتم علينا إنشاء بطارات حديثة في مناطق الواحات المصرية حتى تكون دائماً على استعداد للمساعدة مع الآخرين في تجميع الصحراء .

يسير العالم بخطوات سريعة نحو توطيد سيطرة الدول الأوروبية مرة أخرى على المشرق والمغرب ، ومشكلة فزان إحدى المشاكل المرتبطة بمستقبل ليبيا ، وقد ظهر للبيان كيف تطورت السياسة العامة بالنسبة لإيطاليا فهي قد كانت تقبل منذ ستينين مساعدة الدول العربية بأسواتها لاستعادة الأوتريزا والصومال في مقابل الاعتراف باستقلال ليبيا كاملاً ، أما اليوم فلا أدري هل تقبل ذلك ؟

— من الناحية القومية يبدو لنا أن فرنسا تحاول أن تعمل على إعادة نفوذ إيطاليا كاملاً ، وفي هذه الحالة هل تسلمها حدودها القديمة أم تقطع فزان ، وإذا سلمت لها فزان هل تحتفظ بـ ١٠٠٠ ر ١٠٠ كيلو متراً من الأراضي التي سلمها لافال إلى موسوليني ؟ وما هو موقف الإنجليز أمريكان ؟ ...

— إن موقفهم يتلخص في الاحتفاظ بالراكز الاستراتيجية . ولا يوجد شك في أن بريطانيا لها مراكزها في برقة كما لا يوجد شك في أن أمريكا لها مراكزها في طرابلس . في مصلحة من استقلال ليبيا موحدة . .

هذا ما عليه تطورات السياسة العالمية ومقدار الثقة التي يحصل عليها أهل ليبيا وبرقة أنفسهم .

— أما أهل فزان فداخل السور الحديدي أملاك شائكة وجنود السنغال ، مثلهم كمثل ملايين من بني آدم لا يتمتعون بما يسمى حقوق الإنسان : تحرمهم منها أم كانت هي أول من نادى بحزمة حقوق الإنسان .

أحمد رمزي

بقعة في النفس يخلق فيهم صفات ممتازة أهمها الجرأة على الوقوف أمام عقبات تبدو مستعصية ووسط ظروف تعد خطيرة ثم تعويد النفس على أحد القرارات السريعة الحاسمة وتنفيذها وهي صفات تبدو في كثير من الأمم وكأنها قد فقدتها مع اليوم الذي فقدت استقلالها فيه .

وليس معنى هذا أننا معاشر الشعوب الإسلامية في تاريخنا الطويل المملوء بالحروب التالية سواء في آسيا أو أفريقيا لم نتق طعم الانتصار وحلاوته ، بل كان لدينا من هذه الفئة الممتازة كثيرون ، ومنهم من لا يمكن مقارنته بشيء من الرجال الأوربيين نظراً لتفوقه ، ومنهم لا يقل في صفاته عنهم .

ولقد كان من أسلافنا من قادوا الحملات عبر الصحراء عدة مرات ودانت لهم القارة الأفريقية بحسب الأساليب التي كانت متبعة في عصرهم فهناك حملات من الشمال إلى الجنوب عبر الصحراء الكبرى وحملات من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب قام بها أسلافنا من الرابطين والوحدين على شكل أوسع وأعظم مما ينتشر به قواد الستمرين من الإيطاليين والفرنسيين . ولكننا اليوم مضطرون أن نأخذ من الغرب وأن نتبع خطواته ، وأن ندرس هذه الحملات ونقلدها حتى أساليب القتال على أراضينا وأوطاننا .

بعد مضي سبعين عاماً على حملة فرنسا التي ساقها على الجزائر أي في سنة ١٩٠٠ احتلت القوات الفرنسية القيمة في جنوب الجزائر واحة عين سلاج ، وكان هذا الاحتلال بمثابة فتح جديد قابله العالم بدهشة زائدة ذلك لأن فرنسا فاجأت العالم بإنشاء قوة عسكرية جديدة للسيادة يرجع الفضل في تدريبها وتجهيزها إلى الماجور لابين فهذه القوة أشار إليها جيراننا في كتابه عن إخضاع ليبيا وقال إن إيطاليا أدخلت هذا النظام لديها وزادت عليه فتولى قيادة رجال البادية اللوق داوستي الذي أخذ هذا العمل بمجد ولا أزال أذكر حديثه من الأيام التي قضاها وسط الصحراء وكيف أنه كان يمر من حينه الدائم وهو في أوروبا عن أيامه في تلك البقاع .

والسكلم من قوات البادية وتنظيمها لا بد أن يذكر العمل الذي قام به الماجور جلوب باشا المسمى بالحنك في بادية الشام ، فهذه وإن كانت بيده من فزان إلا أنها توح من أعمال الأوربيين يستحق اهتمام أولى الأمر وتقديرهم .

ماذا نستخلص من محاضرة فزان :